الموضوع الروائى

بين الحىّ اللاتينى والخيط الأبيض

فى عام ١٩٥٣ ظهرت فى أدبنا العربى رواية الحىّ اللاتينى للدكتور سهيل إدريس رئيس تحرير مجلة الآداب البيروتية ، وبعدها بعشر سنوات تمامًا ظهرت فى أدبنا العربى رواية الخيط الأبيض لمحمد مفيد الشوباشى . وكلتا الروايتين تعالجان موضوعًا واحدًا على وجه التقريب ، ذلك هو ما يتعرض له فتى عربى فى مقتبل حياته لصراع بين حضارته وحضارة الغرب فى القرن العشرين . وبما أننا أمام عمل روائى فإن هذا الصراع يتّخذ صورةً عاطفيةً فنجد حياة البطل العاطفية ميدانًا للصراع بين حبه لفتاة أوربية هى جانين مونترو الفرنسية فى الحى اللاتينى وهى لورا ويمان . . الإنجليزية فى الخيط الأبيض ، وحبه لامرأة تمثل شرقه العربى ، هى الأم التى تريد أن تزوجه بنتًا من بنات وطنه فى الحىّ اللاتينى ، وهى رجاء – حبيبة القلب ثم زوجة العمر – فى الخيط الأبيض .

وما كان يمكن للبطل أن يتعاطف فى كلٍّ من الروايتين مع فتاته الأوربية إلاّ لأنها تمثل بدورها الجانب المتعاطف مع شرقنا العربى فى تلك الحضارة ، ومع ذلك فيبدو أن هذا التعاطف فى كلتا الروايتين لا يحطم كل جوانب المقاومة فى نفس البطل ، لهذا ما تلبث هذه العلاقة العاطفية أن تتحطم . وكأنما يريد أن يقول لنا مؤلف كلٍّ من الحىّ اللاتينى والخيط الأبيض إن التزاوج بين الحضارتين الغربية والعربية لا يمكن أن يتم فى الوقت الراهن ، فما زالت عشرات الرواسب والعقد تحول بيننا وبينه . فالحضارة الأوربية بجانبيها المتفوق والاستعمارى (وأحدهما للأسف أدّى إلى الآخر) ما يزال يقف عقبةً فى سبيل هذا التزاوج ، وهو تزاوج لن يتم إلا عندما تزول آخر مظاهر الاستعمار من جانب الحضارة الغربية من ناحية ، وعندما يتقارب مستوى التفوّق بين تلك الحضارة وحضارتنا من ناحية أخرى (وهما مظهران مترابطان فيما يبدو) لهذا فإن بطل كل من الروايتين لم يجد طمأنينته إلاّ فى أحضان فتاة من وطنه . ولكن

كان بطل « الحى اللاتينى » قد رفض ناهدة التى اختارتها له أمه ، فى رواية « أصابعنا التى تحترق » للمؤلف نفسه – وهى تعبر عن مرحلة تالية من حياة بطل الحى اللاتينى – نجده قد وجد طمأنينته فى إلهام راضى التى جمعت بين شىء من تحفظ الفتاة الشرقية وشىء من تحرر الفتاة الغربية .

ولما كان الصراع بين الحضارتين يتبلور فى الصراع السياسى ، فإننا نجد الأحداث السياسية جزءًا أساسيًّا من الموضوع الروائى لكل من الروايتين ، وأن لبطل كل منهما اهتماماته الوطنية . فى رواية الخيط الأبيض نجد تحديدًا للفترة التاريخية التى تقع فيها أحداثها ، وهى إحدى تلك الفترات التى اشتد فيها الصراع بين انجلترا ومصر وذلك حين انفجرت ثورة عام ١٩١٩ وما تلاها من أحداث ، والحدث العام مرتبط بالحدث الخاص ، ومقاومة المصريين للاحتلال البريطانى فى تلك الفترة كانت موضع مناقشات مباشرة بين أحمد منصور ولورا ويمان ، بل إن هذه الأحداث تدخلت فى مشاعرهم بل وتحركاتهم كما حدث حين قامت المظاهرة يوم نظر قضية ملكية بيت لورا وخاف أحمد عليها – وهى الإنجليزية – أن تخرج إلى الشارع لتذهب إلى المحكمة فيتعرض لها الجمهور الساخط ، بينما أصرت هى على الخروج استنادًا إلى أنها تشارك المصريين مشاعرهم . أما رواية الحى اللاتينى فهى تشير من حين لآخر للصراع السياسى بين الشرق العربى والغرب وكيف وصل هذا الصراع إلى العلاقات العاطفية ، فقد انفصل فؤاد صديق بطل الحىّ اللاتينى عن عشيقته الفرنسية فرانسواز بسبب اختلافهما حول سياسة فرنسا فى تونس فى ذلك الوقت .

ومثل هذا النوع من الروايات يكون مشحونًا بالرمز أو بتعبير أدق يكون مشحونًا بالدلالات . فأم البطل فى الحى اللاتينى وهى تشدّ ولدها عاطفيًّا نحوها وتحذّره من نساء باريس حتى لكأنما هى ضميره إنما ترمز إلى الشرق العربى ، وتلك هى أيضًا دلالة رجاء فى الخيط الأبيض التى يقول الكاتب إن مصريتها هى التى جذبت إليها أحمد منصور . وفى الوقت نفسه نجد أن جانين مونترو فى الحىّ اللاتينى ولورا ويمان فى الخيط الأبيض ترمزان إلى الجانب المتعاطف معنا من شعوب الحضارة الغربية ، بينما هناك شخصيات أخرى مثل فرانسواز فى الحى اللاتينى وكلوديا وجفرى أخوى لورا – اللذين اعترضا على علاقة أختهما بأحمد منصور ثم ما لبثا أن هجرا مصر إلى وطنهما – هذه الشخصيات تمثل الجانب المضاد لنا فى تلك الحضارة . أما موقف البطل فى كل من الروايتين فهو دلالة على موقف الشرق العربى فى محاولته أن يأخذ

من الغرب ما تنطوى عليه حضارته من مميزات ويرفض فى الوقت نفسه ما تنطوى عليه هذه الحضارة من شرور .

ومنذ السطور الأولى فى رواية الخيط الأبيض نواجه بهزيمة الضابط الإنجليزى أمام أحمد منصور فى محاولته الفوز بقلب لورا ، وينعكس هذا الحدث – وما يرمز إليه – على كل ما يتلوه من أحداث. ثم تشغل قضية البيت الذى اشتراه بالإسكندرية والد لورا من طبيب مصرى جزءًا هامًّا من أحداث الرواية . وفقد أسرة ويمان لقضيتها وبالتالى لملكيتها هذا المنزل لها دلالتها ، وكأنما لا مكان لمستعمر يريد أن يتملك جزءًا من أراضينا حتى ولو أضفى على هذا التملك مظهر البراءة . وقد تلا ذلك بالفعل انهيار أسرة ويمان ووفاة من لم يرحل منهم واحدًا بعد الآخر حتى انتهى الأمر بالعمى الذى أصيبت به لورا نفسها . ولا شك أن لتحطيم هذه الأسرة الإنجليزية على هذا النحو ، بعد فقدهم ملكية بيتهم ، دلالتها المشحونة بالرمز .

ولئن كانت علاقة البطل فى الحىّ اللاتينى – وهو بدون اسم – بفتاته جانين مونترو تختلف عن علاقة أحمد منصور بلورا ويمان فى الخيط الأبيض ، إلاّ أن الدوافع واحدة والنتيجة أيضًا واحدة . لقد التقى بطل الحى اللاتينى بجانين مونترو فى فرنسا ، وكان قد ذهب إليها ليحصل على إجازة الدكتوراه أى أنه قصد بنفسه معقلاً من معاقل الحضارة الغربية التى تمثل التفوق الثقافى والاستعمارى معًا كما خبره فى وطنه لبنان ، وفى طريقه إلى فرنسا كان يحلم بالحريات التى يتخيلها فى الغرب ، وقد تبلورت هذه الحريات – قبل كل شىء – فى الحرية الجنسية . وكان هذا ما يبهره ، ولكنه – وهو ما يزال يحمل ضميره الشرقى فى أعماقه – كان يقززه فى الوقت نفسه .

أما أحمد منصور فقد التقى بلورا فى القاهرة ثم فى الإسكندرية . فلئن كان بطل الحى اللاتينى يمثل الشرق العربى الذى يسعى ليأخذ عن الغرب ، فإن لورا وأسرتها الإنجليزية تمثل الغرب الذى أتى إلى الشرق العربى ساعيًا إلى السيطرة عليه ، ولم تكن الحرية الغربية هى التى بهرت أحمد منصور فى علاقته بلورا ، فقد كان لا يرى منها فى مصر إلاّ مظاهر السيطرة والاستعباد للشعوب الأخرى ، إنما بهرته تلك الثقافة التى كانت تتمتع بها لورا حتى استطاعت أن تفتح له عوالم جديدة من الأدب والفكر لاسيما الفكر الاشتراكى وإن أدرك فيما بعد أنها حصرته فى نطاق الفكر الإنجليزى وأن الحضارة الغربية أوسع من هذا الفكر وأشمل .

أما الأسرة فقد لعبت دورًا هامًّا فى موقف بطل الحى اللاتينى من جانين مونترو ، ففشل

العلاقة العاطفية كانت بتأثير أمه ثم أخته هدى . أما أحمد منصور فقد لعبت شخصيته ، وما انعكست عليها من أحداث يمر بها وطنه ، وما اتسمت به من تردد ، وما حصلت عليه من ثقافة ، لعبت هذه الشخصية دورها فى موقفه من لورا . لهذا – ولئن كان موقف البطلين العاطفى غير منفصل عن موقف أكبر وأشمل منهما هو الصراع بين حضارتين – إلاّ أن بطل الحى اللاتينى بدا كأنما هو مغلوب على أمره ، فهو يخاطب نفسه قائلاً :

اعترف بأنك لم ترمض قوامك إلاّ لتخرج بأن هذا الذى يشدّك الآن إلى أمك ليس هو الحب ، إنما هى الخشية ، الخشية من أن تشعر بأنك تسىء إليها إذا سلكت هذا المسلك أو تصرفت ذلك التصرف . إنها الرغبة فى أن ترضيها ، فى أن تردّ لها الجميل الذى أنت مدين لها به ، أيًا كان الثمن الذى تدفعه.

لهذا كان للتقاليد دورها الأكبر فى فشل علاقته ، فهو يبرر موقفه من جانين مونترو بقوله :

– ماذا سيقول الناس ؟ لقد عاد من باريس وفى ذراعه فتاة لم تكن بكرًا ، لأنها كانت مخطوبة. فتاة طردها أهلها ، فتاة التقطها من الطريق ، فتاة تشتغل فى مخزن ، فتاة مسيحية من غير دينه .. فتاة .. أية فضيحة ، أى عار سينصب على بيتنا ، بيتنا هذا الذى عاش طويلاً فى الستر والفضيلة والشرف والدين .

وعندما ندم على موقفه من جانين مونترو ، حاول أن يحصل عليها من جديد بعد أن انقطعت علاقته بها ، ولقد عثر عليها وعرض عليها الزواج ، لكنها ما لبثت هى أن هربت منه بعد أن تركت له خطابًا وكأنه صوت ينبعث من الغرب مخاطبًا شرقنا العربى ، فهى تقول له :

لقد استعدت ما حدثتنى به عن المستقبل ، وعن آمالك ، وعن حياة الصراع الذى أنت مدعو إلى أن تعيشها فى بلادك ، فوجدت أن دنياك التى تحلم بها أوسع وأعظم من أن يستطيع الثبات فيها شخص ضعيف مثلى . إنك الآن تبدأ النضال ، أما أنا فقد فرغت منه ، ومات حس النضال فى نفسى .. إنك إنسان جديد يعرف الذى يريده ، ويسعى إليه بثقة وإيمان . لا يا حبيبى ، لسنا على صعيد واحد . لقد وجدت أنت نفسك بينما أضعت أنا نفسى فكيف تريدنى أن أستطيع السير إلى جانبك قدمًا واحدةً فى الطريق الذى ستسلك ؟... دعنى هنا أتابع طريق حتى النهاية ، وعد أنت يا حبيبى العربى إلى شرقك البعيد الذى ينتظرك ، ويحتاج إلى شبابك ونضالك .

أما موقف أحمد منصور فيبدو أنه كان أكثر إراديةً ، أو على الأقل بدا نابعًا من

شخصيته ، ولم يكن لأسرته دخل من موقفه ، بل على العكس من ذلك فإن أخته مُنَى كانت تعمل جاهدةً على إبقاء علاقته بلورا وقطع علاقته برجاء بالرغم من أنها ابنة أخت زوجها ، وكذلك كان موقف والديه ، كله عطف ومحبة لأسرة ويمان ، والوالد – الذى حاول أن يتدخل حين رأى ابنه منصرفًا عن المحاماة بسبب ميوله الأدبية – لم يحاول أن يتدخل يومًا فى علاقته بلورا .

لقد لعبت شخصية لورا فى صدامها بشخصية أحمد منصور الدور الأكبر فى تقرير مصير علاقتهما العاطفية ، فهو يتململ دائمًا من نزعة لورا إلى التحكّم ومحاولتها فرض رأيها عليه حتى أحس أنها تزدرى رأيه ولا تريد منه إلاّ أن يتشكل على النحو الذى يعجبها ويرضيها ، حتى صارحها ذات يوم قائلاً : إنك تحاولين تغليب رأيك على رأيى ، وتغليب شخصيتك على شخصيتى ، ولا تهدئين إلاّ إذا تمت لك السيطرة علىّ .

فلما عاتبته قائلةً إنها تبالغ أحيانًا فى الخضوع له قال – وكأنما لم يسمع تعقيبها – ألابدّ أن نختلف على كل شىء يا لورا ؟ على كل شىء .

وهذا الاختلاف بل الصراع بين الشخصيتين هو الذى قرر مصير علاقتهما العاطفية .

وربما كان فى هذا الاختلاف أو الصراع بعض العوامل الشخصية على نحو ما يحدث فى مثل هذه العلاقات العاطفية بين أبناء الوطن الواحد ، إنما الذى ضخّم منه هو الصراع الكامن وراءه بين الحضارتين اللتين ينتمى إلى كل منهما أحمد منصور ولورا ويمان . وقد أعلن ذلك أحمد منصور بصريح العبارة حين قال :

إن شيئًا واحدًا هو الذى يفرق بينهما دائمًا . إنها تستخفّ بفهمه وذوقه ، بل وبمواهبه أيضًا . . ولو كانت تستخفّ به لعيب شخصى فيه لهان الأمر نوعًا ، ولكن استخفافها به يرجع إلى استخفافها بالشرقيين جميعًا . إن هذا اتجاه سائد بين الأوربيين عمومًا . . إنها لا تختلف قط عن بنى جنسها . إنها تحبه ما فى ذلك شك . . وقالت إنها مصرية ، وحاولت أن تكون كذلك حقًّا ، وآثر ذلك فى نفسه دون ريب . ولكن هذا لا يكفى لإزالة العقبة الكؤود القائمة بينهما ، عقبة الزهو بجنسها والاستخفاف بجنسه ، هذه العقبة التى تصدّه عنها ، وتصدّ قومه عن قومها .

وعندما التقى أحمد منصور برجاء ولاحظ اهتمامها به وشعوره بالألفة ، قال لنفسه : ما ألطف هذه الحفاوة الشرقية الحماسية ، وهذا التعاطف السريع الصادق . وقارن بينها وبين

لورا التى تحبس كل حركة من حركاتها لتمتحنها أولاً ، وتدقق فى كل كلمة قبل أن تنطقها .

لهذا عندما طلب أحمد منصور أن يتزوج لورا اعتذرت ، لأن لورا – مثلها مثل زميلتها جانين مونترو بل مثل أية امرأة – تدرك رغبة الرجل فى الزواج منها بأفعاله لا بأقواله . ولقد دلت تصرفات كلٍّ من بطل الحمى اللاتينى والخيط الأبيض على انطفاء هذه الرغبة ، وعندما طلب كل منهما الزواج من فتاته الأوربية كان يدفعه إلى ذلك الواجب أكثر مما تدفعه عاطفته ، ولقد أدركت كل من الفتاتين ذلك إدراكًا واضحًا وتصرفتا على أساس هذا الإدراك . ووصفت كل منها نفسها بالضياع[1] . فاحترفت جانين مونترو بيع جسدها ، بينما أصيبت لورا بالعمى وأصبحت شبه ميتة تسكن شبه قبر .

لقد عبّر لنا أكثر من كاتب فى أدبنا العربى عن التقاء الحضارتين الغربية والعربية وانعكاسه على شخصيته أو شخصياته على نحو ما نجد لدى توفيق الحكيم فى زهرة العمر وعصفور من الشرق ولدى يحيى حقى فى قنديل أم هاشم . وروايتا الحمّى اللاتينى والخيط الأبيض هما من أبرز تلك الأعمال الأدبية التى عبّرت عن الصدام بين الحضارتين فى قالب روائى ، وجعلت العلاقة العاطفية مسرحًا ورمزًا لهذا الصدام ، وأعلنت فشل التزاوج بين الحضارتين فى مرحلتنا التاريخية الراهنة .

---

(١) الحمّى اللاتينى ص ٢٠١ ، الخيط الأبيض ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر : القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٤٣٢ .